من غزوات الرسول

غزوة الخندق

تأليف

حازم عفيفي

غزوة الخندق

(شوال – ذو القعدة) 5هـ

انقلبتِ الأوضاعَ على المسلمين في غزوة أُحَد بمخالفة الرماة لأمرِ رسول الله ﷺ، ليمر رسـول الله ﷺ والمسلمـون بمحنة شديدة من الهزيمة، وضياع نصرٍ كبيرٍ كان يمكن أن يكون كنصرِ يوم بدرٍ، ثم ما أصـاب رسـول الله ﷺ من جراح وإصابات شديدة، وما جرى من قتل لسبعين من أبطال المسلمين، وعلى الرغم من كل ذلك، إلا أن المسلمين في النهاية استطـاعوا أن يتمـاسكـوا ويتجمعوا حول رسـول الله ﷺ، ويدافعوا عنه، ويحمونه، ويشقوا طريقًا آمنًا لرسول الله ﷺ،فيحتمي في النهاية في شعاب جبل أُحَد بعيدًا عن يدي المشركين الذي حاولوا بكل طريقة قتله.

ثم وقف أبو سـفيان بن حرب قائد جيش المشـركين ينادي في المسـلمين أن موعدكم معنا للحرب في العام المقبل.

وبعد مرور العام، وبالتحديد في شهر شعبان عام 4 هـــ خرج رسول الله ﷺ من المدينة في ألف خمســمائة من أصــحابه ﷺ لقتال المشــركين في الموعد المحدد، وعسكروا في بدر.

وخرج جيش مكة يقودهم أبو ســفيان بن حرب في ألفي مقاتل، وفي طريقهم إلى بدر اختلفوا، وألقى الله في قلوبهم الرعب والخـــوف من لقاء المسلمين، فعادوا من حيث أتوا.

وأقام رسول الله ﷺ في جيش المسلمين ببدر ثمانية أيام، كانوا فيها على استعداد للقتال، فلما لم يحضــر جيش مكة عادوا وقد زادت هيبتهم في نفوس الكافرين الذين خافوهم، وجبنوا عن قتالهم، وأخلفوا الموعد.

وأرادت قريش أن تقوم بعمل يحافظ على ســمعتها بين قبائل العرب، فقررت أن تغزو المدينة، لكن هذه المرة لا تقوم بهذا العمل وحدها، ولكن ضمن جيش كبير من قبائل العرب يضمن لهم التخلص نهائيًّا من الإسلام والقضاء عليه وعلى أهله،

وكان ذلك بتحريض من زعماء يهود بني النضـــير الذين دبروا قبل ذلك مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ، فحـــاربهم رســـول الله ﷺ و المسلمون وأخرجوهم من المدينة في ربيع الأول عام 4هـ.

وذهب وفدٌ من اليهود إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو المسلمين بالمدينة، وفعلوا الأمر نفسه مع قبيلة غطفان، وغيرهم.

وخــرج أبو سفيــان بن حــرب في أربعــة آلاف مقــاتل من قريش وحلفائهم بمكة لقتـــال المسلمين بالمدينة، وخرجـــت كثير من قبائل العرب مثل: غطفان، وأســـد، وغيرها، فاجتمعت لجيـــوش الكافرين التي سميت بالأحـــزاب عشرة آلاف مقاتل، وهو عدد كبير جداً يفوق عدد جميع المسلمين بالمدينة بصبيانهم، ونسائهم، وشيوخهم،

واتجهت جيوش المشركين مجتمعة لمحاصرة المدينة والهجوم عليها.

ووصــلت أخبار تحرك جيوش المشــركين نحو المدينة إلى رســول الله ﷺ، فجمع رســول الله ﷺ كبار الصــحابة وشــاورهم في هذا الخطر الكبير الذي كان في طريقه إليهم.

فقدَّم الصحابي الجليل سلمـــان الفارسي ﷺ مشـــورته بحفر خنـــدق حول المدينة يمنع المشركين من الوصـول إليهم، وكانت مثل هذه الخطط يعرفها سلمان ﷺ عندما كان يعيش في بلاد فارس قبـــل إسلامه، وكانت الفـــرس عادة ما يحفرون الخنادق ويتحصـــنون وراءها إذا جاءهم عدو، وكانت خطة حكيمة لم يكن يعرفها العرب من قبل.

وأمـــر رسـول الله ﷺ أصحـــابه بتنفيذ هذه الخطة العبقـرية بسرعة، وعيَّن مكان حفر الخندق في شمال المدينة؛ لأنه المكان الوحيد الذي يمكن مهاجمة المدينة منه، وذلك لأن مدينة رسول الله ﷺ تحيطها من الجهات الأخرى: جبال، وأشجار، ومناطق صخرية تسمى الحرَّة، وهي حجارة سوداء كثيرة مدببة بارزة على مساحة واسعة من الأرض من المستحيل لجيش أن يسير فوقها.

وقسَّم رســـول الله ﷺ العمل بين أصحابه، وكان يحفـــر وينقـــل التراب معهم، ويشجِّعهم على العمل، ويعمل بيده معهم.

وكان المسلمون في حالة شديدة من الجوع ونقص الغذاء، حتى أن بعضهم كانوا يربطون أحجارا على بطونهم حتى لا يشعروا بالجوع، وكان رسول الله ﷺ يربط على بطنه حجرا كبيرا مثلهم.

واستمر الحفر، المسلمون يعملون بجد ونشاط، ورسول الله ﷺ يعمل معهم، ويقول لهم ﷺ مشجعا، على تحمل الجوع، والتعب:

- اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار.

والمسلمون مستمرون ومنهمكون في العمل، ويجيبون:

نحن الذين بايعوا محمدا — على الجهاد ما بقينا أبدا

فيشجعهم رسول الله ﷺ على مواصلة العمل، ويساعدهم، فيقولون:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا — ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل سكينةً علينا — وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إنَّ الأُلى قد بغوا علينا — وإن أرادوا فتنةً أبينا

وحدثت معجزةٌ عظيمةٌ لرسول الله ﷺ، وذلك أن أصحاب الرسول ﷺ اشتكوا إليه ما يشعرون به من الجوع الشديد، وكان عند جابر بن عبد الله ﷺ عنزة صغيرة، وحفنة من شعير تكفي لصنع رغيف أو رغيفين، وأراد جابر ﷺ أن يطعم رسول الله ﷺ وبعضَ أصحابه بما يكفيهم من هذا الطعام القليل،

فذبح العنزة، وصنعت له امرأته طعاما من اللحم والعجين، ثم ذهب جابر ﷺ سرًّا إلى رسول الله ﷺيدعوه إلى الطعام الذي أعدته امرأته له.

فوقف رســـول الله ﷺ ونادى في أهل الخندق جميعا، ودعاهم إلى الوليمة، وكانوا ألفًا، فأكلوا من الطعام جماعات جماعات، وبقي اللحم والعجين في الإناء كما هو لم ينقص منه شيئاً!

وأثناء حفر الخنـدق استعصت على المسلمين صخـرة كبيرة لم يستطيعوا تحطيمها بالفؤوس، فاشتكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فشمَّر عن ساعده، وأخذ المعول، ثم قال ﷺ:

– بسم الله.

ثم ضرب الصخرة ضربةً، فكسر ثلثها.

وبشَّر رسول الله ﷺ أصحابه قائلاً:

- الله أكبر، أعطـاني الله مفاتيـح الشـام، أبشروا، والله إني لأنظـر إلى قصـورها الحمراء الآن.

ثم ضرب رسول الله ﷺ ضربةً ثانيةً، فقطع جزءا كبيرا منها.

وقال رسول الله ﷺ مبشرا أصحابه:

- الله أكبر، أعطاني الله ملكَ فارس، أبشروا، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن.

ثم ضرب رسول الله ﷺ ضربةً ثالثةً فتفتت الحجر، وصار ترابا.

وقال رسول الله ﷺ:

- الله أكبر، أعطـاني الله مفـاتيـح اليمـن، أبشـروا، والله إني لأبصـر أبـواب صنعـاء من مكانـي.

وكان الصحـابة الكـرام ﷺ يؤمنـون بصـدق رسـول الله ﷺ الذي وعدهم بنصر الله تعالى لهم، على الرغـم من صعـوبة موقفهم واجتماع المشركين عليهم من كل ناحية للقضـــــاء عليهم، ليس هذا فقط، ولكنهم كانوا يؤمنون بصـدق ما وعدهم الله على لسان رسوله ﷺ من فتح بلاد الروم، والفرس، واليمن، وانتشار دين الله في الأرض!

وواصـل المسـلمون عملهم في حفر الخندق ، فكانوا يحفرون طوال النهار بجدٍّ، ثم يرجعـــون إلى أهلهم في المســـاء للنوم، ويعودون في الصبـــاح إلى مكان الخندق ليواصلوا الحفر، حتى اكتمـل لهم حفـر الخنـدق قبل أن يصـل إليهم جيش المشركين الجرار.

وكان جيش المشـركين كبيرا يملأ الوادي، فلما رآه أهل النفاق في المدينة تزعزعت قلوبهم، وسخروا من رسول الله ﷺ ومن المؤمنين، واستهزأوا بوعود رســـول الله ﷺ لهم بالنصر على عدوهم، وفتـح بلاد الروم والفرس!

أما الصــــحابة ﷺ الكرام فزادهم الله تثبيتاً في دينهم، وإيماناً بصــــدق الله تعالى ورسوله ﷺ.

وخرج رســـول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من أصـــحابه وهم على اســـتعداد لقتال المشركين، وكان شعارهم يومها: "هم لا يُنصرون".

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ بجمع النساء والصغار في حصن مرتفع من حصون المدينة، ليكونوا في أمان إذا تعرضت المدينة لهجوم المشركين.

ووقف رسول الله ﷺ والمسلمون من وراء الخندق الذي حفروه في شمال المدينة يحرسونه بكل حماس وهمَّة، وهم مستعدون لردِّ المشركين بالسهام، كي لا يستطيعوا عبور الخندق إلى المدينة.

وفوجئ جيـــشُ المشركين المتجمعين لغـــزو المدينة (الأحزاب) بالخندق أمامهم، وكانت حيلة لا تعـرفها العـرب من قبـل، فلم يستطيعوا عبوره إلى الجـانب الآخـر، فوقعـوا في حيرةٍ شـديـدةٍ، وتوقفـوا عن التقـدم، ولم يكن أمامهم إلا أن يظلوا في أماكنهم، فعسكروا وفرضوا حصارا شديدًا على المسلمين من وراء الخندق.

كان فرسـان المشـركين يتجولون حول الخندق بحثًا عن موضـع ضـيق يمكنـهم أن يقفزوا بخيولـ هم إلى الجانب الآخر من خلاله، والمسلمون من الجانب الآخر يحرسون الخندق ويتتبعون حركة المشــــركين ويرمونهم بالنبال، فيبتعد هؤلاء الكافرون بالقدر الكافي حتى لا تصـيبهم سـهام المسـلمين، كما كان المشـركون يرمون المسـلمين بسهامهم، والمسلمون يتحصنون منهم بالدروع.

وظل الوضـع هكذا لم يسـتطع المشـركون عبور الخندق، ولا أن يردموه أو يقيموا عليه جسـرا، حتى ضـاق بهذا الوضـع عددٌ من فرســان قريش، وقرروا عبوره إلى الجانب الآخر ليهاجموا معسكر المسلمين، منهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهـل، وضـرار بن الخطاب وغيرهم، فاختــاروا أضيــق مواضع الخنــدق فقفزوها بخيــولهم منه، حتى أصبحــوا على الجــانب الآخر وجــالوا بخيــولهم في معسكر المسلمين.

وفوجئ المســلمون بفرســان قريش وقد عبرت إليهم، وأســرع إليهم عليٌّ بن أبي طالب ﷺ وعددٌ من فرسان المسلمين لقتالهم.

ودعا عمـرو بن عبـد ود فـارس العـرب العنيـد المسلمين ليخـرج واحـدٌ منهم إلى مبـارزتـه، وكانت العرب في الجزيرة العربية كلها تعرف قدره وتهابـه.

وخرج عليٌّ بن أبي طالب ﷺ لمبارزة عمر بن عبد ود، وحدثت بينهما مبارزة طويلة انتهت بانتصار عليٍ ﷺ ومقتل الكافر، فكبَّر رسول الله ﷺ، وكبَّر المسلمون وراءه فرحا.

وفرَّ فرسان المشركين منهزمين، وألقوا رماحهم وسلاحهم، وهم يفرون في ذعر، ليعودوا من حيث جاءوا.

ولم ييأس المشركون فحاولوا بكل طريقة عبور الخندق، أو ردمه، أو إقامة جسر عليه، ولم يسمح لهم المسلمون بذلك.

وكافح المسلمون في الدفاع عن الخندق كفاحا شديدا حتى فاتت رسول الله ﷺ والمسلمون وقت أكثر من صلاة ، وظل التراشق بالنبال مستمرا بين الجانبين، قُتل فيه ستة من المسلمين وعشرة من المشركين.

وقد أُصيب بالنبال من جانب المسلمين الصحابي الجليل سعد بن معاذ ﷺ، رماه أحدُ المشركين بسهم فقطع عرق في ذراعه، فنزفت الدماء بغزارة.

ودعا سعدُ بن معاذ ﷺ ربَّه تعالى، فقال:

- اللهم إنك تعلم أنَّه ليس أحبَّ إليَّ من أن أجاهد قوما كذبوا رسول الله ﷺ وأخرجوه، اللهم إن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني حتى أقاتلهم فيك، فإن انتهت بيننا وبينهم الحرب، فاجعل جرحي ينزف الدم حتى يكون موتي.

ودعا سعد بن معاذ ﷺ على يهود بني قريظة الذين خانوا عهدهم مع رسول الله ﷺ والمسلمين، أ لا يميته الله حتى يرى ثأره فيهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وتوقف نزف الدم من جرحه حتى يستكمل قتال المشركين واليهود مع رسول الله ﷺ.

وكان يهود بني قريظة يجاورون المسلمين في المدينة من جهة الجنوب، فعاهدهم رسـول الله ﷺ وعاهدوه على ألا يسـمحوا لجيوش المشـركين أن يدخلوا المدينة من أراضـيهم، فخانوا العهد، وتعاهدوا مع المشـركين على قتال المسـلمين، وأعدوا العدة ليطعنوا المسـلمين في ظهورهم، وحاولوا مهاجمة المسـلمين من الخلف والمسـلمون منشغلو ن بمنع المشركين من عبور الخندق.

فأثنـاء وجـود النسـاء والصبيان في أحد حصون المدينة طاف بهم أحد يهود بني قريظة يتجسس على الحصـن ليخبر اليهود كي يهاجموه ويأسروا من فيه، فشـاهدته صـفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، فنزلت إليه، وضـربته بعمود خيمـــة، ثم قتلتـه!

ولما رأى اليهود صـــاحبهم مقتولاً ظنُّوا أنَّ بالحصـــن رجالاً يدافعون عنه، فهربوا مذعـــورين، ونجَّا الله تعالى نســـاء المسلمين وذريتهـــم بفضل شجاعـــة وبطـــولة الصحابية الجليلة صفيـــة بنت عبد المطلب رضي الله عنها، عمة رسول الله ﷺ، وأم الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري رسول الله ﷺ.

ولم يتجرأ اليهود بعد ذلك على مهاجمة الحصـــون التي تحفظ النســـاء والذرية، لكنهم ظلُّوا على غدرهم بالمســـلمين يمدُّون جيش المشـــركين بالطعام والســـلاح، ويغرونهم على قتال المسلمين.

وبلغ رســـول الله ﷺ خبر يهود بني قريظة، فأراد أن يتأكد ويتبين الحقيقة، فبعثَ وفداً من المسلمين فيهم سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة رضي الله عنهما إلى يهود بني قريظة ليعلموا هل خانوا العهد مع المسلمين أم لا؟

وأمرهم رسول الله ﷺ إذا وجدوا يهودَ بني قريظة متمسكين بعهدهم مع المسلمين أن يعلنوا هذا في مجلس رسول الله ﷺحتى يطمئن الناس، أما إذا وجدوهم قد خانوا عهدهم مع رســـول الله ﷺ أن يقولوا كلمة يعرفها رســـول الله ﷺ وحده، ولا يعرفها باقي المسلمين، حتى لا تضعف روحهم المعنوية.

وذهب الوفدَ الإسلامي إلى يهود بني قريظة فأظهر لهم اليهود العداوة، وسبُّوهم، وقالوا:

- لا عهد بيننا وبين محمدٍ ولا عقد.

فانصـــرف وفدَ المسلمين في حالة من الحـــزن، والغضب على اليهـــود الذين لا يحترمون العهود، وقد خانوا وغدروا، وجاء الوفدَ إلى رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ بين أصحابه، فقالوا:

- عضل والقارة!

وهما القبيلتان من العرب اللتان غدرتا بأصحاب رسول الله ﷺ يوم الرجيع، وكان أصحاب الرسول ﷺ يومها عشرة، فيهم عاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي رضي الله عنهما، أرسلهم رسول الله ﷺ إليهم في عام 4هـ ليعلموهم دينهم، فغدروا بهم وقتلوهم جميعاً، فحزن رسول الله ﷺ عليهم حزناً شديداً، وحزن المسلمون، وكانت خسارة كبيرة للإسلام.

وبمرور الوقت شاعَ الأمر وعَرف الموقفَ الحرجَ الذي أصبح المسلمون فيه، فوراء الخندق يقف جيش جرار من المشركين يحارب المسلمين ليل نهار، ولا يستطيع المسلمون ترك أماكنهم في مواجهته، في حين كان اليهود يعدُّون العدة لضربهم من الخلف!

ويمكن لهؤلاء اليهود أن يقوموا بعمل يشكل خطورة كبيرة على المسلمين، وهو أن يسمحـوا لجيوش المشركين بدخـول المدينة من الجنوب عبر أراضيهم وديارهم، فكان رســـول الله ﷺ يرسل حرسا إلى حصـــون النساء والذرية، حتى لا يقعون في أسر اليهود أو المشركين.

وظهر المنافقون في المدينة، فاستهزأوا بكلام رسول الله ﷺ حين وعد المسلمين بنصـــر الله، وفتح بلاد فارس، والروم، واليمن، وطلبوا أن يتركوا مكانهم ويعودوا إلى بيوتهم بحجة حمايتها من أعدائهم!

وفي هذه الظروف الصعبة ثبت رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ على دينهم ثباتاً كبيرا، وأيقنوا بنصر الله تعالى، حتى أن رسول الله ﷺ وقف يقول، ويبشر أصحابه:

- الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره!

وفكر رســول الله ﷺ في عمل يمكن أن يفكك اجتماع الأحزاب، ويشـــتت جمعهم، وهو أن يعقد صــــلحاً مع قبيلة غطفان التي كانت تحاربهم مع قريش، فيعطيهم ثلث ثمار المدينة من النخل مقابل أن ينسحبوا من المعركة.

ودعا رسـول الله ﷺ إليه السـعدين: سـعد بن معاذ، وسـعد بن عبادة الأنصـاريين رضي الله عنهما، فعرض عليهما الأمر واستشارهما في خطته هذه، فقالا:

– يا رسـول الله، إن كان الله أمركَ بهذا، فسـمعا وطاعة، وإن كان شـيئًا تصـنعه من أجلنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم قبل الإسـلام على الشـرك وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا بيعًا أو إكراما للضـيف، أفعندما أكرمنا الله بالإسـلام، وهدانا له، وأعزنا بك يا رسـول الله، نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف، والقتال!

فقال رسول الله ﷺ:

– إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد توحَّدت عليكم.

وأعجب رسول الله ﷺ برأيهما، ودعا لهما بخير.

وجاء الصـحابيُّ نعيم بن مسـعود ﷺ إلى رسـول الله ﷺ وكان من قبيلة غطفان فأسلم، وأقام مع المسلمين، وقال ﷺ:

- يا رسـول الله، إني قد أسـلمتَ، وإن قومي لم يعلموا بإسـلامي، وإني أريد أن أفعل شيئًا أنصر به الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ:

- إنما أنت رجـل واحـد، فافعـل شيئًا يا نعيـم تخـذّلهم[1] عنّا ما استطعت، فإنَّ الحرب خدعة!

فذهب نعيم بن مســعود ﷺ إلى بني قريظة، وكان هو وقومه غطفان حلفاء لهم في الجاهلية، وقال لهم ﷺ:

- قد عرفتم ودّي لكم، وما بيني وبينكم، فإن قريشًا ليســوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصـحابه، وقد نصـرتموهم عليه، ولو انهزموا للحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدًا فينتقم منكم.

---

[1] - خذّلهم: أحدث بينهم وقيعة.

قالوا:

- فما العمل يا نعيم؟

قال نعيم بن مسعود ﷺ:

- لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن منهم.

قالوا:

- لقد أشرت بالرأي.

ثم ذهب نعيم ﷺ إلى قريش، فقال لهم:

- تعلمون ودّي لكم ونصحي لكم، وإن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمدٍ وأصحابه، وإنهم اتفقوا معه أن يأخذوا منكم رهائن يقدمونها له، ثم ينصرونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم!

ثم ذهب نعيم ﷺ إلى غطفان، فقال لهم مثلما قال لقريش.

وحدث تماما ما أعدَّ له نعيم بن مسعود ﷺ، فأرسل يهود بني قريظة إلى قريش وغطفان يريدون رهائن منهم حتى يقاتلوا معهما، فقالت قريش وغطفان:

- صدقكم والله نعيم.

وبعثوا إلى يهود بني قريظة رسالة قالوا فيها:

- إنا لا نرسل إليكم أحداَ، فاخرجوا معنا حتى نقاتل محمداَ.

فقالت قريظة:

- صدقكم نعيم.

ونجحت خطةُ نعيم بن مسعود ﷺ، دبَّت الفرقة والاختلاف بين صفوف المشركين ويهود بني قريظة، واختلفوا بفضل فطنة هذا الصحابي الجليل وذكائه، وحسن تدبيره.

ودعا رسول الله ﷺ ربَّه تعالى أن ينصر المسلمين على جيوش المشركين الذين جاءوا أحزابا لقتالهم، وقال ﷺ:

- اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم!

واستجاب الله تعالى لرسوله ﷺ ، فأرسل الله عليهم جنداً من جنده، وهي ريح شديدة اقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وقلبت قدورهم، وشتت شملهم...

وأرسل الله تعالى جنداً من الملائكة، أمرهم أن يلقوا الرعب والخوفَ في قلوب المشركين.

وفي ليلة شديدة الريح شديدة البرد أرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ ليأتيه بأخبار المشركين، وقال رسول الله ﷺ لحذيفة ﷺ:

- يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تفعل شيئاً غير ذلك حتى تأتيني!

فتسلل حذيفة بن اليمان ﷺ إلى معسكر المشركين في ظلام الليل، فوجدهم وقد هُدمت خيامهم، وانكفأت قدورهم، وساءت أحوالهم، وضعفت عزائمهم، وسمع أبو سفيان زعيم قريش يقول لقومه:

– يا معشر قريش، لم يصلح لنا هذا المقام، فقد هلكت الخيل والإبل، وأخلفت قريظة عهدنا، وبلغنا عنهم ما نكره، ولقينا من شـــدة الريح ما ترون، لا تُبقي لنا نارا، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا معي فإني مرتحل!

وأمسك حذيفة بسهمه ووضعه في القوس ليقتل به أبا سفيان زعيم قريش، الذي كان قريبا منه ولا يراه، لكنه تذكر أمر رسول الله ﷺ ألا يفعل شيئًا غير مهمته التي كلفه الرسول ﷺ بها، فأعاد القوس والسهم.

ثم قام أبو سفيــان إلى جمله فركبه وهو جــالــس، ثم ضربه فنهض به، وانطلق مسرعا.

وعاد حذيفة بن اليمان ﷺ إلى رسـول الله ﷺ، فأخبره أنهم يسـتعدون للرحيل بعد أن خاب سعيهم، فحمد رسول الله ﷺ الله تعالى أن صدق وعده، وأعزَّ جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ورجع رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة بعد شهر أو أكثر من الحصار، بعد أن علم المشـــركون أنهم مهما بلغت قوتهم ومهما جمعوا من قبائل العرب لا يستطيعون أن يقضوا على قوة المسلمين في المدينة، وبالفعل فإن العرب لم يستطعوا أن يأتوا بمثل هذا العدد الكبير الذي حاصروا به مدينة رسول الله ﷺ في هذه الغزوة بعدها أبدًا.

وفي اليـوم الذي رجـع فيه رسـول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السلام، فقال:

- يا رسول الله، أَوقَد وضعت السلاح؟! فإن الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض بمن معك إلى بني قريظة! فإني ســائر أمامك أزلزل بهم حصـــونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب.

فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يسيروا معه على الفور لتأديب يهود بني قريظة الذين خانوا العهد.

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب ﷺ، وكان المسـلمون ثلاثة آلاف، معهم ثلاثون فرسـا، فحاصـروا حصون بني قريظة حصارًا شديدًا.

وكان في استطـاعـة يهـود بني قريظة أن يتحملـوا حصـار المسلمين لهم، وذلك لتوافر الغـذاء عنـدهم، ووجود آبار المياه التي تمدهم بالمياه داخل حصونهم، بالإضافة إلى منـاعـة هذه الحصـون التي يحتمـون داخلها ، في حين كان المسلمون في العراء يقـاسـون البرد، والجـوع، وشـدة التعب بعد غزوة الخندق التي فـرض المشـركون عليهم فيها حصـارًا اسـتمر أكثر من شـهر وراء الخندق، وهم يمنعون المشركين عنه، لكن الله ألقى الرعب في قلوب يهود بني قريظة فقرروا الاستسلام.

وبعد حصـار طويل دام خمس وعشـرين ليلة، قرر يهود بني قريظة أن ينزلوا على حكم رسـول الله ﷺ بعد أن يسـتشـفعوا بالأوس الذين كانوا حلفاءهم قبل الإسـلام، فرضـي رسـول الله ﷺ واختار لهم سـيد الأوس سـعد بن معاذ ﷺ ليحكم فيهم، فقبل الأوس به حكما.

وكان ســـعد بن معاذ ﷺ في المدينة يعالج من الجرح الخطير الذي أصـــابه يوم الخندق، فأرســل إليه رســول الله ﷺ ليحضــر إليهم، فجاء ســعد بن معاذ ﷺ محمولاً على حمارٍ، فحكم فيهم أن يقتل الرجال، الذين خانوا العهد وأعانوا المشـــركين على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ ﷺ:

- **يا سعد، لقد حكمت فيهم بحكم الله الذي أنزله من فوق سبع سموات.**

وكان الله تعالى أنزل على رسوله ﷺ في القرآن الكريم هذا الحكم تماما، كما حكم به سعد ﷺ.

و قُتل رجال بني قريظة الذين خانوا عهد الرســـول ﷺ وغدروا بالمســـلمين في الخنـدق، وأعـانوا المشـــركين وجيش الأحزاب عليهم، وكـان جزاؤهم العـادل الـذي يستحقونه.

وفتح المسلمون ديار بني قريظة فوجدوا آلاف السيوف والرماح كان أعداء الله اليهود يجهزونها لقتال المسلمين، وهكذا تخلص المسلمون في المدينة من مجاورة يهود بني قريظة، كما تخلصوا من قبل من يهود بني النضير، و يهود بني القينقاع، وتخلصوا نهائيا من دسائس اليهود، ومكائدهم، ومكرهم.

وبعد أن حكم سعد بن معاذ ﷺ فيهم بما حكم به الله تعالى في كتابه الكريم، وما رضي به رسول الله ﷺ، ورأى بعينيه ثأره من مشركي قريش ومن اليهود، استجاب الله تعالى له دعاءه، فنزف جرحه دما غزيرا، وكان رسول الله ﷺ ينصب له خيمة في المسجد قريبة من بيته لعلاجه، ويزوره بنفسه، ومات سعد بن معاذ ﷺ، وكانت شهادته رضي الله عنه في سبيل الله بالإصابة التي أُصيب بها في غزوة الخندق.

وذكر رسول الله ﷺ فضائل هذا الصحابي الجليل ﷺ لأصحابه، فقال ﷺ:

- اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ.

ولما حَملت جنازته، وجدَ الناس نعشــه خفيفًا، وكان ســعدٌ ﷺ كبير الحجم ضــخم الجسم، فاستهزأ به المنافقون، وسخروا منه، فأخبر رسول الله ﷺ المسلمين:

- إن الملائكة كانت تحمل نعشه.

وقال رسول الله ﷺ عنه:

- نزل جنازته سبعون ألفًا من الملائكة.

وانتهت الســنة الخامســة من الهجرة بغزوة الخندق التي انتصــر فيها الإيمان على قوى الكفر التي اجتمعت من الجزيرة العربية للقضاء على الإسلام في المدينــة، فعلموا أنه لا يســتطيع أحد مهما بلغت قوته أن يقضــي على الإســلام، وأن قدرة الله لا تُغلب مهما كان عدد المشــركين، فهزمهم الله تعالى بالريح العاتية والرعب، وكانت آخر مرة يفكرون في مهاجمة المدينة.

وقال رسول الله ﷺ بعد أن ذهبت الأحزاب:

- الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم.

فلم يستطع المشركون في مكة أو ما حولها أن يجمعوا جيشًا كبيرًا لقتال المسلمين بالمدينة بعد ذلك ، وسـيأتي اليوم الذي يجمع فيه المسـلمون لقتال مشـركي قريش، وهو ما حدث تماما بعد ثلاث سنوات عند فتح مكة.